جهود العلامة محمد البشير الإبراهيمي في النهضة باللغة العربية في الجزائر

The efforts of Algerian scholar, sheikh Muhammed Bachir Al-Ibrahimi in the renaissance of Arabic language

ط.د. عنتر رمضاني [1] / جامعة غرداية / مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائر "الجزائر"

ramdani.antar@univ-ghardaia.dz

ط.د سهى حيمور / جامعة 8 ماي 1945 / مخبر الدراسات اللغوية والأدبية –قالمة–"الجزائر"،

himour.souha@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 15 / 09/ 2021 تاريخ القبول: 10/ 11 / 2021 تاريخ النشر: 31 / 12 / 2021

ملخص:

نسعى في هذه الورقة لبيان جهود علامة الجزائر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ونضاله المجيد في النهضة باللغة العربية، وكيف كانت خطته في ذلك، خاصة بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين، واعتماد اللغة العربية كمبدأ من المبادئ التي نشأت لأجلها الجمعية وسعت بجهودها لذلك.

الكلمات المفتاحية :محمد البشير الإبراهيمي، اللغة العربية، النهضة، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجهود.

***Abstract*:**

In this paper, we seek to explain the efforts of the Algerian scholar, Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, and his glorious struggle in the Renaissance in Arabic, and how was his plan in that, especially after the establishment of the Association of Muslim Scholars, and the adoption of the Arabic language as one of the principles for which the association was established and sought with its efforts to do so

Keywords: *Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi, Arabic, Renaissance, Association of Algerian Muslim Scholars, efforts.*

1 **المؤلف المرسل:** عنتر رمضاني ، **الإيميل:** ramdani.antar@univ-ghardaia.dz

مقدمة:

لقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مثالا يحتذى لمن رام العمل الصحيح والمثمر في سبيل نهضة الجزائر، واستقلالاها عن المستدمر الغاشم، وما بلغوا ذلك إلا بسياستهم الرشيدة التي مست مجالات عديدة، منها الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، ولعل عناية الجمعية بنشر العربية كان هدفا عظيما بذلوا من أجله كل غال ونفيس، في سبيل تحققه على أرض الجزائر، كون اللغة مكونا مهما من مكونات الشخصية الجزائرية بما في ذلك علاقة اللغة بالإسلام العظيم، فارتأينا التركيز على جهودهم في هذا المضمار واخترنا مثالا ونموذجا قيما لذلك وهي جهود العلامة محمد البشير الإبراهيمي في بعث ونهضة العربية في الجزائر، فما هي خطة الإبراهيمي في ذلك؟ وكيف انتهج تلك الخطة رغم الظروف الصعبة للواقع الجزائري آنذاك؟ وكيف تعامل مع الاستعمار الذي كان يحارب اللغة العربية؟ فكان مقالنا مبنيا على خطة وفق عناصر ركزنا فيها على جهوده في تكوينه وتعلمه العربية من معينها الأول، وكذا ما صنعه أيان كان رئيسا للجمعية وقبلها، وأيضا عنايته بالعربية في مؤلفاته وغيرها من عناصر المقال التي تناولناها، ولعل هذا المبحث يعد من المباحث التي تناولها الدارسون خاصة في ميدان الأدب، والتركيز فيه على نشر اللغة العربية بالتحديد والعناية بها في الجزائر.

أخبر الله تعالى في كتابه العزيز عن طائفة من الناس وصفهم بالرجال بعد وصفهم بالمؤمنين ليبين عظيم شرفهم وفضلهم، فقال :"مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا " [1]،وهذا لصدقهم فيما عاهدوا الله عليه، النابع من إيمانهم الكبير به سبحانه وتعالى، و هؤلاء الرجال ثلة مباركة طيبة من الأمة، تسعى لصلاحها وإصلاحها، وتعمل للخير وتدعو له بكل ما أوتيت من قوة وطاقة، ولعل هذا ينطبق كثيرا على رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، خير جمعية اخرجت للناس في أرض الجزائر، وعلى رأسهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله، أحد أولئك الرجال المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فقد أعطى عهدا لنصرة الجزائر وتحريرها، وللنهوض بلغة القرآن والكتاب العزيز وتعميمها في مختلف الأقطار والأمصار، فأدى الذي عليه ببراعة حتى نال مراده، ولازال فضله على اللغة العربية يذكر، وعلمه بها ينشر في صفوف الأجيال التي أتت من بعده، حيث أفنى كل أوقاته رحمه الله في سبيل إحياء العربية وآدابها، وشهد له بالفضل في ذلك أقرانه ممن عاصروه من قريب أو من بعيد، وما نال هذا إلا ليقينه الراسخ بعظم الرسالة التي حملها، وصبره على الأمانة التي كافح من أجلها، ولله در القائل :بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، وفيما يلي نسلط الضوء على بعض جهود الرجل في ميدان العربية ونضاله من أجلها، لعلنا نوفي حق جهاد هذا الرجل في سبيل بعث لغة القرآن والنهضة بها في الجزائر.

1- جهود البشير الإبراهيمي في النهوض بالأدب واللغة :

لا يستطيع أي دارس منصف أن ينكر جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في هذا المجال فقد كان أسد العرين، وسيد الفرسان في مضمارها، وإذا ما تحدثنا عن جهوده المباركة في هذا الميدان، فستطالعنا صفحات نيرات، وتاريخ مجيد في ذلك، إذ جعل الشيخ رحمه "اللغة العربية" قضية كبرى، فجاهد جهادا مستميتا في سبيلها، وبذل كل ما له من طاقة من أجل بعثها ونهضتها، فكان أول ما قدمه محمد البشير الإبراهيمي من جهود هو:

1- تكوينه ونشأته العلمية :غدي الإبراهيمي رحمه الله العربية وآدابها من معينها الأول، فكانت كتاباته ومقالاته تنضح بالفصحى، وتشع بالبيان العربي الأصيل، ولا يمكن لمن يحب العربية ويسعى لنهضتها ورفعتها ألا يكون عارفا أو محيطا بمسائلها أصولها وفروعها، والحرص عليها وعلى نشرها لا ينبع إلا ممن تمكنت العربية من نفسه، وحظيت باهتمامه علما ومدارسة، وهذا كما سبقت الإشارة إليه من حسنات التكوين والنشأة التي شب عليها وهو صغير، حيث تعهده عمه محمد المكي الإبراهيمي، وقام على تربيته وتعليمه علما أن عمه كان فريد عصره في إتقان علوم العربية، يقول الإبراهيمي رحمه الله تعالى:"وكنت ملازما له حتى في النوم والطعام، فكان لا يخليني دقيقة واحدة من فائدة علمية"[2]، والسر في نبوغ الإبراهيمي هو الطريقة التي اتبعها عمه في تلقينه العلم والعربية يقول الإبراهيمي عن ذلك :"وكانت له طريقة عجيبة في تنويع المواضيع والمحفوظات حتى الأمل"، وتعاهده رحمه الله حتى صار صاحب حافظة خارقة للعادة، فحفظ القرآن العظيم كاملا حفظا متقنا وهو لا يزال ابن ثمان سنوات وحفظه لأمهات الكتب من مثل :ألفية بن مالك، تلخيص المفتاح، وألفتي العراقي في الأثر والسير، نظم الدول لابن الخطيب ومعظم رسائله المجموعة في كتبه، ومعظم رسائل فحول كتاب الأندلس كابن شهيد وابن أبي الخصال وأبي المطرف، ابن أبي عمير، ومعظم رسائل فحول كتاب المشرق كالصابي والبديع، مع حفظ المعلقات والمفضليات وشعر المتنبي كله وكثير من شعر الرضي، وابن الرومي وأبي تمام والبحتري وأبي نواس، كما استظهر كثيرا من شعر الثلاثة جرير والأخطل والفرزدق، وحفظ كثيرا من كتب اللغة كاملة كإصلاح المنطق والفصيح الثعلب، وجمع الجوامع في الأصول وحفظ من شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة .

وحفظ صدرا من شعر الطائيين، وحفظ كثيرا من رسائل سهل ابن هارون وبديع الزمان الهمذاني، وكتب الأدب الكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ وأدب الكاتب ولابن قتيبة الدينوري وحفظ أسماء الرجال الذين ترجم لهم المقري في نفخ الطيب وأخبارهم وأشعارهم، وفي عنفوان تلك الفترة حفظ برعاية عمه كتاب كفاية المحتفظ للأجدابي الطرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني[3]، ويتدرج رحمه الله من كتاب إلى كتاب تلقينا وحفظا ومدارسة لما حفظه واستوعبه"فكان يقرأ وحده ويقرأ وهو يمشي في المزارع، ويقرأ ويطالع على ضوء الشمع وعلى قنديل الزيت وفي الظلمة وهو في هذا كله لا يمل ولا يكل رحمه الله ذو قريحة نيرة، وذهن صائد للمعاني ولو كانت بعيدة."[4]

ومما لا شك فيه أن هذا الزاد الهائل من المعارف والعلوم والمحفوظات في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية، كان له عظيم أثر في حب الإبراهيمي رحمه الله للعربية وآدابها ومن ثم بعثها وإحيائها في أرض الجزائر بعد أن أفل نجمها وطمس الاستعمار آثارها.

ولم يكتف رحمه الله عند هذا الحد؛ بل هاجر إلى المشرق أيان النهضة الفكرية والأدبية قد أينعت ثمارها، فزار مصر، ثم زار المدينة المنورة، ثم انتقل إلى بلاد الشام، فالتقى العلماء وتلقي على أيديهم العلم، والتقى الشيوخ والشعراء والأدباء، وبهذا كانت إقامته بالمشرق مرحلة أخذ وعطاء، استطاع فيها الشيخ البشير الإبراهيمي أن ينمي قدراته ومواهبه كما استطاع فيها أن يستزيد في العلوم، فما عاد للجزائر إلا وهو يجر فائض بالمعارف ومحيط زاخر بالعلوم .

هذه السيرة الحسنة، والنشأة الهية في رحاب العربية، أهلته أفل نجمها كي يتصدى وينبري لكل ما يصيب العربية من لوثات العامية، والتغريب وغيرها، وسياسات الاستدمار الغاشم، والذي كان من أهدافه محو اللغة العربية ومسخها ، إما باللهجة العامية أو اللغة الفرنسية .ولا يخفى ما في ذلك من ضرر ، فقد عمد الاستدمار الفرنسي منذ الوهلة الأولى إلى تدمير اللغة العربية في الجزائر، فكتب الدوق روفيغو عن أهداف السياسة التعلمية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر قائلا" :لن تصبح الجزائر مستعمرة فرنسية إلا عندما تصير لغتنا هي اللغة السائدة، وتتأقلم فنوننا وعلومنا، ولا يمكننا التشكيك في ذكاء العرب؛ فالتاريخ شاهد على ذلك، إن المعجزة الحقيقية التي يجب تحقيقها، هي تحويل بخطى بطيئة اللغة الفرنسية محمل اللغة العربية، خاصة إذا ما اقبل الجيل الجديد على التعليم جماعات .[5]"فكان تكوين الإبراهيمي كحائط صد يعلم قيمة العربية ومنزلتها، وكذا يعلم حقيقة استبدالها ومحوها باللغة الفرنسية، وما من أحد يغوص في أعماق اللغة العربية إلا ويشرب حبها وحب الذود عنها، ولله در العلامة الطناحي وهو يقول" :فلا مستقبل للغة العربية صحيحة فاعلة دون تعليم منهجي يحببها إلى أبنائها وحملتها، ويقربها إليهم .[6]"وهو الذي نشأ عليه العلامة الإبراهيمي رحمه الله، فكان من السباقين للذود عن حمى اللغة العربية، والعمل على نهضتها في ألسنة الجزائريين .وهو الخبير بسياسة الاستدمار الغاشم، فتكوينه ونشأته العربية كان كافيا لكي يعي خطر نشر اللهجة العامية أو اللغة الفرنسية، لأن مطامح الاستعمار لا تبتغي تغيير اللسان واللغة فحسب، بل تتعداه لمسخ الشخصية والهوية ككل، وهذا ما حرص الإبراهيمي رحمه الله على غرار الجمعية وعلمائها في أن يكونوا بالمرصاد لكل ما فيه خطر على لغة الجزائر وهويتها وشخصيتها .

2- رئاسته للجمعية وإشرافه على التعليم العربي :عاد العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله للجزائر، بعد رحلة طويلة في طلب العلم والجلوس بين يدي العلماء، فشارك بقدر كبير في سبيل النهضة وخاصة النهضة باللغة العربية الذي كان هاجسه الأول والأخير، فكان له الفضل رحمه الله في تكوين جمعية العلماء المسلمين مع الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومساهمته في تكوين الجمعية من أبرز جهوده رحمه في النهضة لبعث العربية وآدابها من جديد، خاصة وأن الجمعية بتيارها الإصلاحي في ذلك من يمثل أكبر مدافع عن العربية وآدابها.

ولما ترأس الجمعية "رحمه الله" عمل على مواصلة المشروع النهضوي الذي بدأه زملاؤه من قبل، وحرص على إحياء التعليم العربي، وتحمل المشاق والصعاب العويصة في سبيل بعثه في ربوع الجزائر أولا، وفي أرجاء العالم العربي والإسلامي ثانيا.

فمنذ وفاة الشيخ العلامة ابن باديس رحمه الله، انتخب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وهو في المنفى رئيسا جديدا لجمعية العلماء المسلمين، يقول الإبراهيمي :"فانتخبني إخواني رئيسا الجمعية ومازلت متشرفا بهذه الرئاسة إلى الآن"[7] ، وكان يدير ويوجه الجمعية من طرف المراسلة يقول الإبراهيمي :"أصبحت أدير الجمعية وأصرف أعمالها من المنفى بالرسائل المتبادلة بيني وبين إخواني بواسطة رسل ثقات" [8]ولما أطلق سراحه عاد المزاولة أعماله بقوة وعزيمة مما كان عليه ورفع تقريرا للحكومة بتاريخ 05 أوت1944 م عبَّر فيه هو وزملائه عن الرفض المطلق للتضييق والمحاصرة على المساجد والتعليم العربي ومما جاء في هذا التقرير..." :ومن أسوأ ما في تلك القرارات أثرا وأشده إيلاما العواطف المسلمين عامة وللعرب خاصة ما جاء في بعض بنود تلك القرارات من

اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في بلاد وعربية وهي الجزائر، وجاء دور تنفيذها على أيدي صغار الإداريين فبالغو وأسرفوا في التنكيل والمحاكمة وسق معلمو العربية إلى مجالس القضاء كما يساق المجرمون.[9]"...

وقد نشر رحمه الله مقالا في عشرة أجزاء يتحدث فيه عن التعليم العربي بعنوان" :التعليم العربي والحكومة "بين فيه الإبراهيمي كل ملابسات هذه القضية ابتدأ فيه بالقوانين الجائرة على ذلك حيث يقول :"كل الوسائل التي تتذرع بها حكومة الجزائر لمقاومة التعليم العربي هي :إما قوانين أصدرها مجلس الأمة في فرنسا في أوقات مختلفة ولأسباب متنوعة، وإما قرارات إدارية فردية، مصدرها الجزائر، توجهها الروح الاستعمارية [10]"...ثم تكلم عن التعليم الحكومي الذي تقوم به فرنسا، وسوء معاملتها لمن يمارس التعليم العربي حيث يقول :"وافرض أن رجلا فرنسيا فتح مكتبا للتعليم الابتدائي، فهل تظن أن الحكومة تعارض أو تعاكس أو تعطل، أو تعامله بأقل من القليل مما تعاملنا به؟" [11]ليثبت عزم الإبراهيمي رحمه الله وموقفه من ذلك فيقول :"قلنا للحكومة مرات- في صدق وإخلاص -أن هذه الأمة رضيت لأبنائها سوء التغذية ولكنها لا ترضى لهم أبدا سوء التربية ...إن هذه المدارس التي شيدتها الأمة لأبنائها بأموالها ولم ترزا خزانتها فيها درهما ولا دينارا قد أصبحت تضاهي مدارسك سعة ونظاما وجمالا واستكمالا لشرائط الصحة واسترحنا واسترحت [12]"...وعرض في الأخير المماطلة وسء التسيير ومكره من طرف الحكومة وقبولها لبعض القرارات، وتعسفها ورفضها للبعض الآخر قائلا :"أما نحن فقد كنا علماء دين ودعاة علم وتربية، وزراع خير ورحمة، ولكن الحكومة تعد هذا كله سياسة، وتعتبرنا لأجله سياسيين، فليكن ذلك ولنكن علماء وسياسيين، ولنكن كل شيء ينفع أمتنا ويحمي ديننا ولغتنا".[13]

ولأن إيمانه كان قويا بمبادئه رحمه الله فقد سعى جاهدا لبعث التعليم العربي الذي ينهض بالعربية وآدابها أصولا وفروعا، "فما كاد يحل في مدينة سطيف حتى بدأ في عقد الندوات العلمية للطلبة وإلقاء الدروس الدينية للجماعات القليلة، ثم تدرج بعد ذلك من مخاطبة مواطنيه في القرى والنوادي، من خلال محاضراته التاريخية والعلمية إلى التجول في بلاد الجزائر لإلقاء الدروس والوعظ والإرشاد ونشط حركته بإنشاء المدارس التي كانت أوقفت من طرف الحكومة، كما أعد الأساتذة والمال ثم التلاميذ والكتب وأصبحت المدارس تتميز بالنشاط العلمي والنظام، حتى بلغ عدد طلبات الالتحاق بالمدارس سنة 1948 م، 800 طلب، وفي السنة الموالية ازداد أكثر عدد الطلبات وازداد عدد المدرسين ورفع المستوى العلمي، وطالب الحكومة فوق هذا بتسيير إعطاء الرخص للمعلمين لمزاولة مهنة التدريس التي تخدم قضية التعليم العربي الذي يعد أحد ضرورات الأمة الجزائرية، كما استنكر قرار شرطان الذي يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية وطالب بإلغائه".[14]

ولما أدرك البشير الإبراهيمي مدى استعداد مواطنيه للنهضة العلمية التي كان يبشر بها في خطبة " أخذ في إعداد نواة من تلاميذ لبث أفكاره العربية والإسلامية وذلك بإنشاء مدرسة صغيرة لتدريب فئة خاصة من الشبان على الخطابة والكتابة في الصحف وقيادة الجماهير في الوقت نفسه.[15]

وقد أشرف الإبراهيمي رحمه الله على المشاركة في التعليم ففي تلمسان أسس دار الحديث التي لقبت بمدرسة الإبراهيمي، وكانت تجربة خصبة على الرغم من العقبات في بداياتها، إلا أنها كللت بالنجاح حيث يقول في موضوع تجربته لإحياء اللغة العربية في تلمسان":ولقد بدأت دروسي ومحاضراتي في تلمسان بالعربية الفصحى وأخذت نفسي بذلك أخذا اصيلا فيه إلى درجة الإغراب أحيانا، وكان من وراء الالتزام غرضان :أحدهما إقامة الدليل للمتعلمين باللغات الأجنبية على أن الفصحى لا تعني بحمل المعاني مهما تنوعت وعلت، وأنها تمد اللغات في

ميدان التعبير عن الحقائق والخواطر والتصورات، وقد بلغت من هذا الغرض ما اريد، والغرض الثاني أن أحدث في نفوس العامة المحبين للعلم والدين اسفا يقضي مضاجعهم فيدعوهم إلى تدارك ما فاتهم منها في أبنائهم، وكنت أرى من عامة السامعين حسن إصغاء ينبئ باهتمام عميق، فأتى أوله على أنه تأثر بالآيات والأحاديث التي يكثر ترددها في الدرس، والتأثر بكلام الله وكلام رسول الله طبيعي في المسلم، وكم كنت أخشى أن ينفضوا من حولي يوما لعدم فهم ما يسمعون لولا أنني آوي إلى ركن شديد من كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومازلنا على هذا حتى فعل المران فعله، واصبحوا يفهمون ويتذوقون ويخرجون وهم يتدارسون .[16]"

فكان رحمه الله معلما قبل أن يكون داعية ومصلحا، لعلمه بأن الداعية معلم قبل ذلك، ففيما ينقله الأستاذ :أحمد بري في كتابه ظواهر في العبادات :أن الإبراهيمي رحمه الله، كان يلقي ثلاثة عشر درسا في كل يوم هي على التوالي :

"المفرد العلم في رسم القلم، كتاب الموطأ، قطر الندى، التاريخ الإسلامي، مفردات لغوية البيقونية، مقتطفات من الشعر الفحل ومن الأمثال السائرة، أصول الفقه، تحفة ابن عاصم، المعلقات السبع، الجوهر المكنون، تفسير القرآن الكريم، مبادئ أولية في النحو والصرف، والدرس الأخير خاص بالموظفين والتجار" .[17]دون أن ننسى إشرافه على الجمعية ومسؤولياتها.

ومما يجدر ذكره هنا من الأمثلة التي بينت حرص الإبراهيمي رحمه الله على التدريس والتعليم، وكذا اهتمام ذلك الجيل بتلقي العلوم خاصة علوم العربية، أن السلطات الفرنسية قدمت تقارير تذكر أن الإبراهيمي كان يقدم درسه خلال شهر رمضان بعد السابعة مساء، وقد كانت تضم حلقة التدريس ما بين مئة إلى مئة وخمسين شخصا من البالغين .[18]وهذا إن دل فإنما يدل على نجاح الفكرة الإبراهيمية في التعليم وسدادها، وطريقتها السوية التي تسير بصورة تراعي فيها كل الأهداف المرجوة من خلال سياسته الرشيدة رحمه الله في تسيير شؤون التعليم وهو الخبير بها، وقد شهد بذلك العدو قبل الصديق، فتماشيا مع الرقابة التي وضعتها الإدارة الاستعمارية لتنقلات العلماء المصلحين الذين أحدثوا نهضة ثقافية وفكرية، وجه رئيس بلدية ندرومة المختلطة "tpes"إلى والي وهران، يشير فيها إلى عوامل نجاح السياسة التعليمية للعلماء وفاق فرنسا يرجع بالأساس إلى "عدم قدرتنا على بناء مؤسسات تعليمية، وتوفير المعلمين كمنا وعدناهم منذ سنوات.[19]

وهكذا راح الإبراهيمي يعمل دون كلل، ولا وجل، طرفي النهار، وزلفا من الليل يعلم الصغار والكبار مبادئ دينهم ولغتهم، حتى ظهرت أولى تباشير النهضة، وقد نتج عن هذه الدعوة المتكررة، والجملة المستمرة للنهوض بالتعليم العربي والعربية وآدابها، أن بنيت 73 مدرسة، وقد قال عنه الإبراهيمي رحمه الله إنه موسم حمى فائرة أعراضها تأسيس المدارس، وهذيانها الحديث عن المدارس .[20]

ولقد حرص رحمه الله على ضمان التعليم الحر لكل أطياف المجتمع الجزائري، وهو التعليم الذي تريده الأمة، تعليما عربيا يساير العصر وقوته ونظامه، لا تعليما يحمل جراثيم الفناء، وتحمله نذر الموت، ومع كل هذه الجهود إلا أن الصعوبات التي لاقت الإبراهيمي رحمه الله كثيرة وعظيمة، وفي مثل تلك الظروف ما كان لأحد غيره أن يؤدي تلك المهمة على أكمل وجه، ومما نذكره هنا في حديثنا عن صعوبة الإشراف على المدارس، وتجهيز البرامج ونشرها في تراب الجزائر ما ذكره الإبراهيمي نفسه رحمه الله وأفضى به للأديب محمد الغسيري ويظهر ذلك الحرص من خلال رسالة وجهها إلى محمد الغسيري يعاتب فيها تقصيره في حق التعليم في 92 أكتوبر4491 ، ومما

جاء فيها" :إن مستغانم وهي في قلق عظيم وأنا في قلق أعظم، وإن بسكرة عاكستني معاكسة تؤدي إلى سقوط قيمتي في عمالة وهران، وسوقط قيمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأن غيليزان تنتظر أكثر من أختها، كذلك القول في الحمري ووهران وتيارت وحتى تلمسان، يا ولدي إذا دام هذا الحال، فعلى جمعية العلماء.... ، بلغ هذا الكلام إلى بوشمال، والشيخ العربي التبسي، ومحمد خير الدين، إني في تعب عظيم من الجولات والترهيب والعمل المتواصل لإحضار البرامج ليلا ونهارا منذ أكثر من شهر، وكلكم لم تعينوني بشيء، وقد أحظرت كل شيء، ولكنني فشلت لا لشيء، إلا لتراخيكم، وعدم تقديركم للموقف الذي أنا فيه، طلبت الرخصة إلى الجزائر وإلى قسنطينة ولي عشرون يوما وأنا في الانتظار، ولي رجاء قوي في زيارتكم هذه الأيام .[21]"فهذه صورة من صور معاناة الإبراهيمي مع مشروعه التعليمي الذي حسم أمره فيه، وبذل كل ما تيسر له من إمكانيات مادية وبشرية.

وكان للإبراهيمي رحمه الله نظرة خاصة للمدرسة، فيها هدف نبيل يعمل من أجله، وغاية سامية يرمي إليها، فكان يراها جنة الدنيا حيث يقول " :المدرسة جنة الدنيا، والأمة التي لا تبنى لها المدارس تبنى لها السجون.[22]"

لقد ساهم الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي في غرس حب العربية ولغة القرآن الكريم، ولغة أجدادنا، واهتم أكثر بتعليمها بين الصغار حتى ينشأ عليها، ويتربى على اللسان العربي الفصيح والصحيح، وهذا ما عودهم عليه الإبراهيمي في سياسته الرشيدة لنشر العربية.

وينشأ ناشئ الفتيان منا *** على ما كان عوده أبوه[23]

فعودهم الإبراهيمي أن يسمعوا العربية الفصيحة، وعلمهم إياها، من معينها الأول ومصادرها الأولى، لأنه كان يعول عليهم في مشروع لبناء والتشييد لجزائر الاستقلال، لذلك كان احرص ما يكون على تعليمهم تعليما عربيا أصيلا، يقول الإبراهيمي عن ذلك ":فجهزت منهم كتائب لحرب الأمية، وجندتهم، فجندت أبطالا، ونصبتهم، فنصبت من أعلام هداية للجيل الجديد، وأقطاب تربية وتثقيف له .[24]

3- مؤلفاته التي خدمت العربية والأدب :ومن بين مجهوداته رحمه الله مؤلفاته الأدبية واللغوية، فعلى الرغم من انشغالاته واهتماماته الكثيرة، لم يكن الإبراهيمي رحمه الله أديبا متفرغا لشؤون الأدب متخصصا في الكتابة والتأليف، بل صرفه الجهاد من أجل الجزائر عن ذلك، فاختار تأليف الرجال دون تأليف الكتب يقول محمد رجب البيومي :"فقد ألف الرجل وكتب على وفرة أشغاله وعظيم نضاله وصرفه الجهد عن طبع ما كتب وألف، ...ولكن الرجل قد نذر نفسه للكفاح الخالص من كل غرض ذاتي فلم يلتفت إلى نفسه في شيء، وترك كتبه العلمية رهينة مخطوطاته" [25]غير مجموعة ومن بين تلك المؤلفات التي يتحدث عنها الإبراهيمي نفسه قائلا :

لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأني ألفت للشعب رجالا، وعملت التحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرب ورضى الشعب، ومع ذلك فقد ساهمت بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يساعدني الفراغ ولا وجود للمطابع على طبعها، وقد بقيت كلها مسودات في مكتبي بالجزائر، فمن أجمل ما كتب:

- 1عيون البصائر وهي من المقالات التي كتبها بقلمي في جريدة "البصائر" في سلسلتها الثانية.

-2 كتاب بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر، والتزمت فيها اللهجة السائدة اليوم في مواطن هلال عامر.

- 3كتاب النقابات والنفايات في لغة العرب، جمعت فيه كل ما جاء على وزن فعالة "من مختار الشيء ومرذوله".

-4كتاب أسرار الضمائر العربية.

- 5كتاب الشمسية بالمصدر.

-6كتاب الصفات التي جاءت على وزن فعل يفتح العين .

-7كتاب نظام العربية في موازين كلماتها .

-8كتاب الاطراد والشذوذ في العربية: رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك.

-9كتاب ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة .

-10رسالة في ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان .

- 11رواية كاهنة أوراس، بأسلوب مبتكر يجمع بين الحقيقة والخيال .

- 12رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية.

- 13كتاب حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام .

- 14كتاب شعب الإيمان، جمعت فيه الأخلاق والفضائل الإسلامية .

وهنالك محاضرات- يتابع الإبراهيمي الكلام -وأبحاث كتبها على التلامذة في حين إلقائها وهناك فتاوى متناثرة.[26]

ولو أعيدت العناية بها شرحا وتعليقا وتحقيقا، وبثها المهتمون في المناهج التربوية، والمجلات التعليمية، والكتب وغيرها، لكان لها أثر بالغ في تسديد اللسان العربي الجزائري على العربية الفصيحة، والبلاغة العالية.

وهناك محاضرات وابحاث كتبها عنه تلامذته في حين إلقائه، وهناك فتاوى متناثرة، و لكن أعظم ما دون رحمه الله ملحمة رجزية نظمها أيام كان مبعدا في المنفى "الصحراء الوهرانية"، وهي تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه، وقد ضمنها مواضيع وفنونا كثيرة منها :تاريخ الإسلام ووصف لكثير من الفرق التي حدثت في عصرنا هذا وللمجتمع الجزائري بجميع فرقه ونحله، ولأفانين من الهزل للمذاهب الاجتماعية والفكرية والسياسية المستجدة، والإنحناء على الابتداع في الدين، وتصوير الأولياء الشيطان ومحاورات أدبية رائعة بينهم وبين الشيطان ووصف الاستعمار ومكائده ودسائسه وحيلة وتحذيراته للشعوب للقضاء على مقوماتها.[27]

ناهيك عن أجزاء "البصائر" الأخرى التي جمعها نجله أحمد طالب الإبراهيمي في 5 مجلدات سمَّاها بـ :آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، وذلك بمساعدة الأستاذين حمزة بوكوشة رحمه الله - ومحمد خمار، وقد صدر الجزء الأول سنة 1978 م، والجزء الثاني سنة 1981 م، والجزء الرابع سنة1985 م، والجزء الخامس "في قلب المعركة" سنة 1994 م، و عيون البصائر تمثل الجزء الثالث من طبعه سنة.[28] 1997

4- افتتاح جريدة البصائر: لقد أدرك الإبراهيمي رحمه الله أن الصحافة هي لسان حال الشعب، ومن خلالها تكون حلقة وصل بينه وبين العلماء وبينه وبين طلاب العلم، وبينه وبين الشعب الجزائري، فكانت منبرا يعلنون فيها آراءهم، ويبثون فيها أفكارهم، ولهذا سعت جمعية العلماء المسلمين إلى اعتماد مجموعة من الجرائد والمجلات، تكون لسان حالها في داخل الجزائر وخارجها.

وتعد جريدة" البصائر "الجريدة الرابعة التي أصدرتها جمعية العلماء، كما تعتبر من أهم وأبرز الصحف العربية الجزائرية شهرة وانتشارا، وهذا لما تركته من آثار في الحياة الوطنية في شتى نواحيها.

وجريدة البصائر لم تكن كالمنتقد والشهاب ملكا لجمعية العلماء، ولم تظهر حتى كانت صحف ثلاث أخرى سبقتها هي السنة، الشريعة، الصراط، وظهرت أول ما ظهرت سنة 1935 م، وقد ظل الإبراهيمي رحمه مسئولا عن إدارتها إلى أن وتوقفت في سنة 1956 م، بعد أن تشرد المسؤولون عنها، وكانت تصدر أول أمرها يوم الجمعة كل أسبوع ولكنها لم تلبث إلا قليلا حتى أصبحت تصدر يوم الاثنين وظلت على هذا النحو .[29]

بث الإبراهيمي كل طاقاته وصرفها من أجل أن تكون هذه المجلة معدا للأجيال، وخادما فذا للأدب والعربية في تلك الفترة بالجزائر، إذ فتحت المجال للكتاب والأدباء وأطلقت لهم العنان للإبداع والكتابة، فكانت بحق مدرسة أدبية كبرى أخرجت مجموعة من الأدباء والشعراء الذين أسهموا بقدر كبير في دفع عجلة الأدب واللغة نحو الازدهار والرقي، وأبرز كتابها الإبراهيمي نفسه، يقول عبد الملك مرتاض :"ونجد الإبراهيمي في طليعة الكتاب البارعين، فكان يتناول مواضيع يكتب حولها مسلسلات تصل أحيانا إلى عشر مقالات، وكان ينشر فيها أحاديث أدبية بحتة".[30]

ومن أجود ما كتبه الإبراهيمي رحمه الله في" عيون البصائر "مقال يتكلم فيه عن الشباب الجزائري كما يتصوره شخصه الكريم، وكما تمثله له خواطره، فيقول واصفا له معبرا عنه " :أتمثله متساميًا إلى معالي الحياة، عربيدَ الشباب في طلبها، طاغيًا عن القيود العائقة دونها، جامحًا عن الأعنَّة الكابحة في ميدانها، متَّقد العزمات، تكاد تحتدم جوانبه من ذكاء القلب، وشهامة الفؤاد، ونشاط الجوارح.

أتمثله مقداما على العظائم في غير تهوّر، محجامًا عن الصغائر في غير جبن، مقدرًا موقع الرجل قبل الخطو، جاعلا أول الفكر آخر العمل.

أتمثله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كل عربي أخًا له، أخوة الدم، وكلَّ مسلم أخًا له، أخوة الدين، وكل بشر أخًا له، أخوة الإنسانية، ثم يُعطي لكل أخوة حقها فضلا أو عدلا.

أتمثله حلِفَ عمل، لا حليف بطالة، وحلس معمل، لا حلس مقهى، وبطل أعمال، لا ماضغَ أقوال، ومرتاد حقيقة، لا رائد خيال."[31]

فهو رحمه الله يستنهض همة الشباب التي يعمل من أجل إيقاظها لمشروعه العظيم، والذي لن يستقيم أمره إلا بهم، ويحث فيهم نفس الشاب الجزائري الطموح والمقدام الذي لا تثنيه العقبات ولا الصعوبات، في إقامة مشروع التحرر من براثن الاستعمار حقيقة لا محظ وهم وخيال، ولولا هذه اللغة العالية التي تمثلها الإبراهيمي وعبر بها في خواطره عن الشباب، ما كانت لتصلنا هذه المقالات البليغة واللغة المعبرة .

ومن مقالاته الأدبية الفصيحة" سجع الكهان "والذي لاق إعجابا كبيرا، ونجاحا بالغا، وهي أحاديث قصيرة أدبية، كتبها على طريقة المقامات، وحسب منها أنها كتبت بلغة بارعة في البيان، موغلة في الإبداع، لما عرف به الإبراهيمي رحمه الله من بيان جزل، وأسلوب متين، يغذيه في ذلك محزونه الثقافي والأدبي مما حفظه من كتب ومصادر أدبية ولغوية قديمة.

وهذا بعض ما ذكره في مقال" سجع الكهان ":"هذه فصول، إلا تكنْ فيها روح الكاهن ففيها من الكاهن سجْعُه، وإن لا يَجُلْ في جوانبها صَدَى الكهانة، ففيها من ذلك الصدى رَجْعه؛ فيها الزمزمة المفصحة، والتعمية المبصرة، وفيها التقريع والتبكيت، وفيها السخرية والتنكيت، وفيها الإشارة اللّامحة، وفيها اللفظة الجامحة، وفيها العسل للأبرار، وما أقلَّهم، وفيها اللسع للفجار، وما أكثرهم، فلعلّها تهزُّ من أبناء العروبة جامدًا، أو تؤزّ منهم خامدًا، فنجني شيئًا من ثمرة النية، ونغيّر أواخر هذه الأسماء المبنيّة .وفي هذه الفصول من لبوس الألفاظ ما يَعُدُّه المتخلفون من كتّابنا غريبًا، وما غرابته في أذواقهم، إلا كغربة الأعلاق النفيسة في أسواقهم؛ ولو حفِظوه ووَعَوْا معانيه وأقروه في مواضعه من كلامهم، وأحسَنوا إجراءه في ألسنتهم وأقلامهم، لأحيَوْه فحيوا به، ولأصبح مأنوسًا لا غريبًا، وأصبحوا به من لغتهم قريبًا؛ ولكن أعياهم الإحسان، فعقّروا في وجوه الحسان، وعجزوا في جني الثمرة عن الهصر، فرضوا من اللغة بما يباع في" سوق العصر .[32]"وحسب الشباب أن يطالعوا مثل هذا البيان الساحر، واللغة البارعة، فيحفظوا من ألفاظها، ويستفيدوا من معانيها، ولذلك كان الإبراهيمي وغيره يرون في لغة البصائر مستوى عاليا في فن الكتابة الأدبية ، و كان يُهيب بالكتّاب الجزائريّين أن يَشْمَخِرّوا، ولو قليلاً، بلغتهم وأساليبهم، حتّى يكونوا في مستوى أسلوب" البصائر "ولغتها، أو قل على الأصحّ :في مستوى أسلوب محمد البشير الإبراهيمي ولغته.

ولذلك وضع أسُس الكتابة الأدبيّة الراقية التي كان يحض عليها الشباب المتعلم والمثقف، حتى يحملوا بهذه العربية هم الرسالة، ويذبوا عنها في كل ناد وواد عبر مقالاتهم وكتاباتهم في الصحف والجرائد، والتي من أهمّها:

1- رُقيّ الألفاظ والمعاني والأساليب .ولا يتأتّى هذا الرّقِيُّ في نسْج الكتابة الأدبيّة، لكاتب من الكتّاب، حتّى يكونَ ألَمَّ على محفوظٍ غزير من النّصوص الأدبيّة راقٍ؛ إذ لا يُعقل أن ينبُغَ كاتبٌ كبيرٌ وهو لا يحفَظ نصوصاً أدبيّة كبيرة .وجِمَاع الشّأن في هذه المسألة هو ما يُطلِق عليه الشيخ "معرِض العربيّة الراقية" وواضح أنّ بعض المتأدّبين اليوم قد لا يقتنعون بمصطلح" العربيّة الراقية "وهو مجرّد توهّم منهم ومُغالطة، وإقرار بالقصور؛ لأنّ كلّ اللّغات الإنسانيّة الكبيرة فيها مستوياتٌ متدرّجةٌ من التعبير .فلو أخذْنا اللّغة الفرنسيّة مثالاً في ذلك لألفينا لغةَ أناطول فرانس، وأندري جيد، وسَواهما من عمالقة الكتّاب الفرنسيّين غيرَ لغةِ أيّ كاتبٍ صَحَفيّ فرنسيّ بسيط، أو أيّ روائيّ مبتدئ محروم .وإذن، فلا سواءٌ لغةٌ عالية سائلة تُمتْحُ من ضِئْضِئِ المعين، ولغةٌ بَكِيئةٌ تُؤْخَذُ من نهاية الساقية .فأيّ كاتب كبير إنّما يسْتميز باصطناع ألفاظٍ من اللّغة لا يصطنعها سَواؤُهُ من وجهة، وتكون هذه الألفاظ نفسُها بديعةً قشيبة عالية من وجهة أخرى، قبل أن نتحدّث عن الأفكار التي هي مطروحة في الطّريق، على حدّ مذهب أبي عثمان الجاحظ الذي عرَض في بعض كتاب" البيان والتبيين " تحدّث فيه عن كَلَفِ العامّة بصنف من الألفاظ لا تصطنعها الصفوة الصافية، مثل " البُرْمة "مكان "القِدْر , "والحنطة مكان" البُرّ" ، و"الخِيار"مكان" القثّاء"، وهلمّ جرّاً...

2- اللّغةَ عند الإبراهيمي يتمثلها معرضاً قائماً في سُوق أنيقة تُعرض فيها كرائمُ الألفاظ؛ وهو بذلك يكون قد حدّد، تلقائيّاً، مواصفاتِ هذه السّوق الرّفيعةِ التي ليست كأيّ شيءٍ من الأسواق، تُعرَض فيها أيُّ بضاعة من البضائع ا زْملُجَاة؛ بل هي سوق تُجْلب إليها كرائمُ ألفاظِ العربيّة المؤتنقة، وعقائِلُ المفردات المؤتلقة.[33]

وتحديد هذه الخطة في الكتابة الأدبية الراقية، مما يرسخ روح التنافس بين الشباب آنذاك، خاصة أولئك الذين أشرف الإبراهيمي رحمه الله نفسه على تدريسهم، فتتسابق الأقلام في ميدان النشر، وتشحذ الهمم في مجال الكتابة، فما ترى من مقالات ولا كتابات، إلا وهي ذات لغة راقية ومتينة، تنبئ عن وعي ثقافي كبير وإحاطة كبيرة بالعربية وأصولها لدى أولئك الشباب الذين تخرجوا من مدرسة الإبراهيمي رحمه الله.

ناهيك عما هو منشور في آثاره رحمه الله من مثل :كتاب السعادة الأبدية، بين عالم وشاعر، العربية وفضلها على العلم والمدنية، افتراء مستشرق وهي قصيدة نشرت في الجزء الأول من الآثار"، رسالة الضب، مناجاة مبتورة الدواعي الضرورة، رواية الثلاثة، مقدمة كتاب مجالس التذكير، إلى الكتاب، نفحات من الشعر الجزائري الحديث، أما الجزء الثالث ففيه اللغة العربية في الجزائر، القضية ذات الذنب الطويل، عادت لعترتها لميس، في كل ناد أثر من ثعلبة، إبليس ينهي عن المنكر، إبليس يأمر بالمعروف، سكت وقلت، سجع الكهان ....إلخ وفي الرابع :إلى علماء ونجد "أرجوزة"، تعليم البنت "أرجوزة"، صوت من نجيب فهل من مجيب، منزلة الأدب في الحياة، حركاتنا حركات إحياء، دولة القرآن، إن أردت"قصيدة"، غار على أحسابه "قصيدة"، وفي الجزء الخامس، عبرة من ذكرى بدر، حرية الأديب وحمايتها، أحمد شوقي، ...إلخ، كل هذه المقالات وغيرها ساهم البشير الإبراهيمي في تحريرها وإضافتها إلى حركة التأليف والكتابة والإبداع آنذاك.

وكان الإبراهيمي رحمه الله قد سخر قلمه للدفاع عن اللغة العربية التي كانت تلقى التشويه، والتعتيم، والعمل لتهميشها والتشكيك فيها لغة للجزائريين حرصاً على التمكين للفرنسية، تحت جناح البربرية وغيرها من الشعارات التي تبناها الاستدمار، فكتب سنة1941م في جريدة "البصائر" مقالة بعنوان :اللغة العربية في الجزائر : عقيلة حرة ليس لها ضرّة، قال في مقدمتها: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة، ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي، لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين، ترحل برحيلهم، وتقيم بإقامتهم، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيماً لا يتزحزح، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتنساغ في الألسنة واللهوات، وتنساب بين الشفاه والأفواه، يزيدها طيباً وعذوبة أن القرآن بها يتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتختم، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها وخالطت الحواس والشواعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معاً، وجاء دور القلم والتدوين فدونّت بها علوم الإسلام وآدابه، وفلسفته وروحانيته، وعرف البربر على طريقها ما لم يكونوا يعرفون، وسعت إليها حكمة يونان تستجديها البيان وتستعديها على الزمان، فأجدت وأعدت، وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان .. وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار وكذب وفجر كل من يسمي الفتح الإسلامي استعمارا، وإنما هو راحة من الهمّ الناصب، ورحمة من العذاب الواصب، وإنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض".

ونحسب أن هذا المقال في طليعة المقالات التي دافع بها الإبراهيمي رحمه الله عن حياض العربية الأصيلة في بلد الجزائر، وللإشارة فإن الشعب الجزائري كان يتكلم العربية الفصيحة في محادثاته وكلامه، ولم يكن اللسان العربي غريبا عنه ولا بعيدا منه، فمن ذلك ما ذكره الأديب محمد السعيد الزاهري في رده على أحد الكتاب التونسيين لقب نفسه باسم "شهاب" في معركة دارت بينهما، حملتها صحيفة النهضة التونسية، يبين فيها الزاهري أن العربية أصيلة في ألسنة الجزائريين، وأن اللغة الفرنسية هي الدخيلة، وعزيز أن يسمع في بوادي الجزائر كلمات إفرنجية غريبة عن العربية يتخاطبون بها ويتحادثون قائلا ":ولكن أرد عليه ما قاله عن الجزائر بغير حق، ذلك أن حالة الجزائر في عوائدها وأخلاقها وديانتها ولغتها لا تزال إلى اليوم باقية، أما العواطف الدينية فقد قويت، ثم في نفوس القوم قوة لم تقوها من قبل لأنهم يرون كل ما يلاقونه من جفاء الاحتلال ناشئا عن عداوة دينية.[34]"

ويواصل الزاهري تفنيد تلك الشبهات فيقول ":لا تجد في الجزائر مكتبا فرنساويا لتعليم البنات المسلمات، فليس ولله الحمد من بين الفتيات الجزائريات فتاة مفرنسة، فهن وإن كن جاهلات فلم يزلن على فطرة الله التي فطرهن عليها، ولا تجد أيضا جزائرية في مسرح التمثيل، ولا في متفرج عام ... وحتى التراكيب اللغوية باقية في هذا العقب المبارك، وكذلك المفردات العربية عند كثير من الناس، وهي عند عامة الجزائر مبذولة تسمعهم يقولون" :رمح الفرس إذا تعسف الطريق، ونطف الجرح، وقرم فلان إذا اشتهى اللحم، وقضى إذا مات ... ورمضت الأرنب إذا لم تستطع الجري من شدة الحر، وغير ذلك من المفردات لا يكاد يحاط بها حصرا، وعزيز عليك أن تسمع بالبوادي الجزائري كلمة دخيلة فيما يتخاطبون، ويمنعنى ضيق المجال من ذكر جملة من أخلاقهم وعاداتهم صالحة لأن يحكم بها الحكم على القوم بأنهم مرآة تمثل فيها العرب الأولى، وإن كان شهاب .. قال ":أن لغتها أصبحت مالطية جديدة" فهذا القول ينم عن التشفي، ونحن لا يسعنا إلا أن نكل هذا القول إلى أرباب النظر وأصحاب العقول من التونسيين وغيرهم، يحكمون فيه بين الأمة الجزائرية وبين هذا المتكالب الكاذب فيما قال عنها .[35]"فالجزائريون لم يكونوا غريبين عن العربية الفصيحة، بل كانت من صميم كلامهم اليومي، ومحادثاتهم المتكررة، وإنما دب فيها الضعف لما خطط الاستعمار لاستئصالها من قلوب الجزائريين وإبدال العامية "الدارجة" واللغة الفرنسية مكانها.، فمن هنا كان من سياسة الإبراهيمي تعليم الشباب العربية من أجل إعدادهم لأمر عظيم وهو المشاركة في الثورة المباركة، وفي هذا يقول عثمان شبوب ":واللغة من صميم الثورة تؤيدها وتنشر مبادئها، ولا يمكن لثورة شعبية أن تنجح وتحقق أهدافها إلا إذا كانت اللغة الوطنية فيها تحتل مكانتها الطبيعية، كما أن المضمون الحقيقي للثورة هو تحقيق مقومات الشخصية الوطنية وفي طليعتها اللغة، لأن اللغة رمز القومية الرئيسي، ويستحيل على أي شعب ما أن يغير مصيره إلى الأفضل بواسطة لغة أجنبية عنه، والشعب الذي يفقد لغته يفقد حريته واستقلاله .[36]

وقد كان الإبراهيمي رحمه الله رئيس تحرير المجلة "البصائر" يسعى سعيا حثيثا، ويسهر الليالي والأيام يتفرد بنفسه ويختلي بها يحرر المقالات وينشئ الكتابات، حتى أذكى شعلة الإبداع والتأليف في الأدب الجزائري، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل نظم وكتب الكثير من المبدعين والذين من بينهم :الطيب العقبي مبارك الميلي، أحمد توفيق المدني، والأديب أحمد رضا حوحو :"الذي كانت كتاباته من النوع الأدبي البحت، وكان ينشر في البصائر بعض أقاصيصه الجميلة المرحة، وقد نشر فيها مع حمار الحكيم، وكثير مقالاته الأخرى كانت تتناول مواضيع نقدية بحتة".[37]

ثم يأتي بعد ذلك كتاب آخرون ساهموا بقدر كاف في تنشيط حركة الإبداع الأدبي ولعل أبرزهم :محمد بوزوزو، حمزة بوكوشة، أحمد بن ذياب، الشيخ العربي التبسي، إضافة إلى ما كانت تتلقاه من مقالات من طرف كتاب مغاربة يعتبرون اليوم أعلاما الفكر المغربي المعاصر.[38]

وتختم هذا العنصر بالحديث عما تميز به أسلوب البصائر من كتابه و صياغة، حيث لم يكن الإبراهيمي متساهلا مع كتاب البصائر، فقد كان يغريهم بالتجويد في الأسلوب، ويزجي بهم أن يرفعوا إلى المستوى العالي من فن القول، وها هي ذي البصائر تتحدث عن أسلوبها تقول :"للبصائر طرفان؛ أعلى وهو معرض العربية الراقية في الألفاظ والمعاني والأساليب، وهو السوق التي تجلب إليه كرائم اللغة من مأنوس صيره الاستعمال فصيحا، وغريب صيره الاستعمال مأنوسا، وهو مجلي الفصاحة والبلاغة في نمطها العالي، وهو أيضا النموذج الذي لو احتذاه الناشئون من أبنائنا الكتاب لفحلت أساليبهم، واستحكمت ملكاتهم، مع إتقان القواعد، ووفرة المحفوظ، ولهذا الطرف رجاله المعدودون وهو نمط إعجاب أدباء الشرق بهذه الجريدة وطرف أبني، وهو ما ينحط عن تلك المنزلة ولا يصل إلى درجة إسفاف، وبين الطرفين أوساط ورتب، تعلو وتنزل، وهي مضطرب واسع ينقلب فيه كتابنا، من سابق إلى الغاية، مستشرف لبلوغها، ومقصر عن ذلك".[39]

وكان له مذهب في الكتابة يتحرى فيه البيان العربي، ويتميز فيه أسلوبا ولغة وطريقة، بعيدا عن البتذل والتكلف، فكان يمضي عليها في زَخْرفَة القول، وتَحْلِيَةِ الكَلام، فلم يكن يكاد يتجَانَفُ عنها فتيلاً .ولعلّ ذلك أن يبدُوَ من خلال أسلوبه في الكتابة الذي لم يكن يتغيّر أو يتبدّل مهما تكن الموضوعاتُ المعالَجة، والقضايا المتناوَلة؛ فسواءٌ عليه أكان يكتب عن قضايا اجتماعيّةٍ، أم سياسيّة، أم أدبيّة، فإنّ مستوى اللّغة ظلّ لديه هو هو، كما أنّ طريقة النسج باللّغة الرّفيعة ظلّتْ هي هي؛ حتّى إنّ الخبير بالأسلوبيّات يدرك بسهولة إذا قرأ نصّا غير معْزُوٍّ إليه، أنّه لمحمد البشير الإبراهيمي، لا لِسَوائه من الكتّاب .وأكبر أَمَارةٍ على عظمة المنزلة الأدبيّة لكاتب من الكتّاب، أنّه حين يغتدي معروفاً بأسلوبه بين الناس فتراهم يقولون :هذا أسلوب فلان، أو شبيه بأسلوبه، إذا حاكاه مُحَاكٍ في الكتابة، كشأن أبي عثمان الجاحظ، وبديع الزمان الهمذاني، وابن الخطيب الأندلسيّ، وسَوائِهم من عماليق البيان العربيّ الآسِر.[40]

ومما يوضح ذلك ما قاله الأستاذ فرحات دراجي "وهو من كتاب جريدة البصائر"، في مقال له بعنوان "البيان العربي شعار البصائر"":[41]أما أسلوب البصائر في حد ذاته فهو أقوى وأشرف الأساليب التي ظهرت في الجزائر منذ عرفت الصحافة في الجزائر".

وبالعموم فقد امتازت بالعناية بالبيان، وجيد العبارات، واختيار الألفاظ والكتابة في أرقى صورها .

5- ومن بين جهوده رحمه الله التي لا تنكر تقلده مناصب راقية خدمة العربية وآدابها في الجزائر وفي غيرها : فمن ذلك أن عرضت عليه مشيخة الأزهر من قبل الرئيسين محمد نجيب وجمال عبد الناصر، ولكنه رفضها مرارا بسبب تعارضها مع أسباب وأهداف هجرته للمشرق العربي، وبسبب تعارضها مع خدمة قضية الجزائر وتوجهها العربي الإسلامي، ولكنه لما عرض عليه منصب العضوية في المجمع العلمي اللغوي بالقاهرة قبلها لتناسبها مع مكانته اللغوية والأدبية والعلمية، ثم انتخبه أعضاء المجمع اللغوي بالقاهرة كعضو مراسل للمجمع وذلك عام 1954 م، وقد قام بتقديم مذكرة ترشيحه عضوا مراسلا للجمع كل من السادة "الدكتور منصور فهمي، عبد

الوهاب عزام، وأحمد أمين، وأحمد حسين الزيات"، وذلك اعترافا بغزارة علمه وسعة حفظه، ودقة فهمه لآداب العرب، بجميع فنونها من شعر ونثر وأمثال وأيام وأنساب وخطب وتاريخ.[42]

واختيارهم للإبراهيمي لم يكن عبثا بل كان عن قناعة راسخة تؤمن بأن الرجل على اقتدار عظيم وعلى علم كبير بأن يكون رئيسا للمجمع العلمي اللغوي، ومن عجيب ما يذكر وما يدل على أن الإبراهيمي على قدر كبير من الإجلال من طرف أعضاء المجمع ما ذكره الأستاذ موسى الأحمدي نويوات "أنه لما مر بمصر في طريقه إلى الديار المقدسة سنة 1953 م، حضر إحدى الندوات للشيخ البشير الإبراهيمي، ولما انتهى الشيخ من إلقاء كلمته قام الفيلسوف الكبير "منصور فهمي "أستاذ طه حسين زكي مبارك وغيرهم ...ونزع حذاءه معلنا أن هذا المنبر الذي يقف فيه الشيخ ساحة مقدسة ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم، وقال :بأنه لم يسمع أو ير في حياته من هو أفصح وأبلغ من الشيخ البشير، ودعا جميع العلماء والأدباء في الوطن العربي إلى أن يلقوا إليه بمقاليد اللغة العربية وبيانها الساحر إلى الإبراهيمي :قائلا :أنت ملك العربية لهذا العصر، ملكت نواصيها ونواصينا ثم انثنى المربي الكبير الأستاذ كامل الكيلاني فأعلن المبايعة[43]، وقد استمر رحمه الله عضوا مراسلا حتى عام1961 م، حيث تم تعيينه عضوا كامل العضوية في مجمع اللغة العربية ممثلا للجزائر بالمجمع المذكور ضمن أحد عشر عضوا عينوا من مختلف الأقطار العربية في مجمع اللغة العربية في ذلك العام1961- م -وقد ناب عن الأعضاء الجدد في الكلمة التي ألقاها في جلسة افتتاح الدورة الثامنة والعشرين من نفس العام للمجمع، وقد قابله أعضاء المجمع بالترحيب الكبير وصفقوا له طويلا عندما قام يلقي كلمة باسم هؤلاء الأعضاء[44]، وعضويته رحمه الله أعطته دافعا قويا للمضي قدما نحو بعث العربية وآدابها في الجزائر، والعودة بقوة نحو تطويرها وإحيائها، ولعل الخطاب الذي ألقاه في حضرة أعضاء المجمع خير دليل على اهتمامه بهذه اللغة الكريمة ومما جاء فيه قوله :"أيها الإخوة الكرام :حياكم الله وبياكم، وأدامكم وأحياكم، وأبقاكم للعروبة، وأبقاكم للعروبة، تصونون عرضها وتستردون قرضها، وللغة العرب تجتمعون شتاتها، وتحيون مواتها، ...إن هذه اللغة العربية الشريفة التي طرقنا خيالها المؤدب، هي الرحم الواصلة بيننا وهي اللحمة الجامعة لخصائصنا وآدابنا، فمن بعض حقها علينا أن نبلها ببلاها، وأن نرعى حقها علينا أن نخف لتجدها كلما مسها ضرا أو خربها أمر ....أيها الإخوة :لقد كانت العربية قبل اليوم وإن رباعها لمفجوة، وإن قصاعها المكفوة وإن رقاعها لغير ملتامة ولا مرفوة ولا عجب فأقوى جامع لكلمة العرب كلام العرب، ولئن تم ذلك لتكونن هذه الأسرة أعز رهط في العرب.[45]

خاتمة

أما عن الإبراهيمي فقد كان أسد العرين في النهوض بالعربية وآدابها في الجزائر بصورة كبيرة، وجهوده رحمه الله من أجل بعث مجدها نابع من إيمانه العميق بأنها اللغة الشريفة الكاملة لذلك سعي رحمه الله من أجل النهضة بها وقد نلخص جهوده في:

أ. تكوينه رحمه الله: وقد كان تكوينا خاصا حيث تشبع تشبعا كاملا من معين العربية وآدابها وسيرته خير شاهد ودليل على ذلك، فكان تكوينه الغد حافزا قويا من أجل همه الرجل في النهوض بالعربية وآدابها وبعث مجدها.

ب. رئاسته للجمعية: حيث حمل على عاتقه (رحمه الله) رسالة الجمعية الأولى النابعة من الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا، فحقق (رحمه الله) نجاحا باهرا ضمنه حسن التسيير وكفاءته وتفانيه في عمله.

ج. إشرافه رحمه الله على مشروع التعليم العربي بعد أن وقفت فرنسا بالمرصاد وأغلقت المدارس العربية وبمجيء البشير الإبراهيمي أعاد بعث تلك المدارس وأعد لها كل ما يلزم من أجل السير الحسن العملية التعليم من أموال وأساتذة وغير ذلك، حتى بلغ عدد الطلبات بالالتحاق نحو 800 طلب وعدد المدارس التي بنيت سنة 1943 م مثلا بلغت: 73 مدرسة، حتى قال عنه الإبراهيمي: "إنه موسم حمئ فائرة أعراضها تأسيس المدارس، وهذيان الحديث عن المدارس" وانتشار هذا القدر الكبير من بناء المدارس ساهم في رقي التعليم العربي (اللغة العربية).

د. إشرافه رحمه الله ومشاركته في التعليم حيث كان يفني وقته في تعليم النشء وتثقيف الشباب وتعليم الكبار أيضا، يعلمهم مبادئ العربية ويحببهم فيها وفي آدابها.

هـ. ومن بين جهوده رحمه الله تعالى في بعث أمجاد العربية آنذاك مؤلفاته الأصيلة على الرغم أنه لم يشتغل بالكتابة كثيرا، التي خدمت العربية وآدابها فبالرغم من قلتها إلا أنها أضافت إلى العربية ديوانا من خدمة للعربية، ومن مثلها كتب: أسرار الضمائر العربية، التسمية بالمصدر، والملحمة التاريخية الرجزية.

و. إعادة بعثه لمجلة (البصائر)، التي كانت ملاذ المبدعين والمؤلفين حيث فتحت المجال للطاقات الإبداعية الشابة، حتى غدت حاملة لواء العربية وآدابها فأخرجت لنا أدباء وشعراء ساهموا في نهضة الأدب العربية في الجزائر.

هكذا عمل الإبراهيمي على رفعة شأن العربية في الجزائر، وأنها لا تبتعد عن أخواتها من البلدان العربية، كتونس ومصر وغيرها، وكان رحمه الله من الذين نذروا أنفسهم تعليما للناشئة، وتوعيا للعشب الجزائري، كما سخر كل ما توفر له من إمكانيات مادية وبشرية، للعناية باللسان العربية، تدريسا وتمكينا وفقها وكتابة، فكانت أولى خطواته وصولا لهذا الهدف السامي هي نشر التعليم العربي الحر الأصيل، وضع له الإبراهيمي رحمه الله خطة محكمة، غيرت مجرى التعليم في الجزائر، فكانت ثمرته نشر الدين والفقه فيه، ونشر العربية والتحدث والكتابة بها على أروع ما يكون من اساليب البيان العربي، فنهض رحمه بهذه المهمة النبيلة "إحياء العربية وبعث نهضتها من جديد" فكانت نورا على الشعب الجزائري تضيء لهم حوالك الطريق، وكانت نارا متأججة في حلوق المستدمر الغاشم، فكان العلامة "محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله" حلقة من حلقات الجهاد الطويل في الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، وأحد الذين شكلوا وعي ووجدان الأمة العربية والإسلامية على امتداد أقطارها؛ حيث كان أحد رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر، فرحمه الله وجزاه الله عن العربي والإسلام خير الجزاء.

الإحالات والهوامش:

1- سورة الأحزاب الآية 23.

2- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، جمع وتقديم مجلة أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1997، الجزء 5، ص 164.

3- مرجع نفسه، ص 164

4- عبد المالك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، ط 1، 2009، ص 226

5- جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في إحياء تدريس اللغة العربية بتلمسان: 2391م-7491م، بن بوزيان عبد الرحمن، مجلة القرطاس، العدد 4/جانفي 7102، ص 852.

6- محمود محمد الطناحي، صيحة في سبيل العربية، مقالات من أجل نهضة العربية وثقافتها، تعليق أحمد عبد الرحيم، أروقة للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى، 1435هـ-2014م، ص91.

7- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، الجزء 5، مرجع سابق، ص 168.

8- سليمة كبيرة الشيخ البشير الإبراهيمي، المكتبة الخضراء، ص 13.

9- محمد خير الدين، مذكرات، ج 1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985، ص 137.

10-محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، الجزء 5، مرجع سابق، ص 217.

11- مرجع نفسه، ص 218.

12- مرجع نفسه، ص 221

13- مرجع نفسه، ص 251.

14- نبيل أحمد بلاسي، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، الهيئة المصرية للكتاب، 1990، ص 123، 124.

15-مرجع نفسه، ص 125، 126.

16- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، الجزء الأول، ص75.

17- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، الجزء 5، ص 32.

18- جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في إحياء تدريس اللغة العربية بتلمسان: 2391م-7491م، بن بوزيان عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 162.

19- مرجع نفسه، ص 259.

20- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج02، 431.

21- جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في إحياء تدريس اللغة العربية بتلمسان: 1932م، 1947م، بن بوزيان عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 263.

22- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص 135.

23- البيت لابي العلاء المعري.

24- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص 265.

25- محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، منشورات الكتب العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ص 548.

26- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، الجزء 5، مرجع سابق، ص 289.

27- مرجع نفسه، ص 289

28- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، الجزء 5، ص 5

29- عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب الجزائري المعاصر، (1925/1954"، ط 2، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1983 م، ص 108-109-110.

30- عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب الجزائري المعاصر، الشركة الوطنية للنشر، ط 1، الجزائر، 1983، ص 111.

31- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، الجزء الثالث (عيون البصائر"، ص 509.

32- مرجع نفسه، ص 518.

33- عبد المالك مرتاض، مذهب الإبراهيمي في الكتابة، الأحد:21-فبراير-25:91/7102، ينظر موقع: https://binbadis.net/archives/1919

34- رابح فروجي، المقالة النزالية، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية المجلد 8-العدد 14- ص139.

35- رابح فروجي، المقالة النزالية، مرجع سابق، ص 139-140.

36- عثمان شبوب، عثمان شبوب، من اللغة تبدأ ثورة التجديد، مجلة الاصالة، الافتتاحية، السنة الرابعة، العددان 71-71، شوال –ذو القعدة- ذو الحجة 3931هـ، محرم 4931هـ، نوفمبر-ديسمبر 1973م، جانفي، فيفري 1974م، ص 50.

37- عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص 112.

38- مرجع نفسه، ص 112.

39- البصائر، عدد 86 / السنة الثانية، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، لبنان، 1927، 2006. ص 5.

40- عبد المالك مرتاض، مذهب الإبراهيمي في الكتابة، الأحد:21-فبراير-25:91/7102، ينظر موقع: 1919/https://binbadis.net/archives

41- عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب الجزائري المعاصر، ص 112.

42- جامعة الأمير عبد القادر، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، لعلامة المصلح والداعية والأديب، بمناسبة تخرج الدفعة 22، رجب 1430، جويلية 2009، قسنطينة، ص 160.

43- مرجع نفسه، ص 171

44- مرجع نفسه، ص 171

45-مرجع نفسه، ص 392.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم رواية حفص عن عاصم.
- الكتب
- البصائر، عدد 86 / السنة الثانية، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، لبنان، 1927، 2006. ص 5.
- جامعة الأمير عبد القادر، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، لعلامة المصلح والداعية والأديب، بمناسبة تخرج الدفعة 22، رجب 1430، جويلية 2009، قسنطينة، ص 160

- جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في إحياء تدريس اللغة العربية بتلمسان: 2391م-7491م، بن بوزيان عبد الرحمن، مجلة القرطاس، العدد 4/جانفي 7102، ص 852.
- سليمة كبيرة الشيخ البشير الإبراهيمي، المكتبة الخضراء، ص 13.
- عبد المالك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، ط 1، 2009، ص 226
- عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب الجزائري المعاصر، (1954/1925"، ط 2، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1983 م، ص 110-109-108.
- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، جمع و تقديم مجلة أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1997،الجزء 5، ص 164.
- محمد خير الدين، مذكرات، ج 1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985، ص 137.
- محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، منشورات الكتب العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ص 548.
- محمود محمد الطناحي، صيحة في سبيل العربية، مقالات من أجل نهضة العربية وثقافتها، تعليق أحمد عبد الرحيم، أروقة للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى، 1435هـ-2014م، ص91.
- نبيل أحمد بلاسي، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، الهيئة المصرية للكتاب، 1990، ص 123، 124.

- المقالات

- رابح فروجي، المقالة النزالية، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية المجلد 8-العدد 14- ص139.
- عثمان شبوب، عثمان شبوب، من اللغة تبدأ ثورة التجديد، مجلة الاصالة، الافتتاحية، السنة الرابعة، العددان 71-71، شوال –ذو القعدة- ذو الحجة 3931هـ، محرم 4931هـ، نوفمبر-ديسمبر 1973م، جانفي، فيفري 1974م، ص 50.

- المواقع الإلكترونية

- عبد المالك مرتاض، مذهب الإبراهيمي في الكتابة، الأحد:21-فبراير-25:91/7102، ينظر موقع: 1919/https://binbadis.net/archives